التي هي أحسن...
قراءة في حواريات الإمام الرضا (عليه السلام) مع أهل الديانات الأخرى

أ.م.د.هيام عبد زيد عطية

كلية الاداب / جامعة القادسية

يحفظ لنا تاريخ الشيعة الإمامية _من جملة ما يحفظ _بعض مناظرات جرت في عهد الدولة العباسية ، منها تلك التي قامت بين أهل الأديان من غير المسلمين ، ممن كانوا يعيشون بين ظهراني المسلمين وتحت ظل دولتهم مترامية الأطراف ، وبين الإمام الرضا (عليه السلام) من جهة أخرى . ولا يخفى أن تلك الحوارات إنما تمت صناعتها ؛ لأجل اختبار معرفة الإمام ومدى إحاطته بأمور دينه ، ولعلها في وجهها الحقيقي القبيح محاولة بخسة للاصطياد في وحول المياه ، ودمغ الحجة البالغة ، التي كان الإمام الرضا (عليه السلام) وأهل بيت النبوة يحتكمون عليها .

إن تلك واحدة من أمثالها كثر كان يتبعها المأمون وأهل السلطان من خلفاء العباسيين ، الذين لم يحتفظوا ببعض ماء وجوههم للتاريخ ، ولاسيما المأمون الذي وصف لجبروته وطغيانه بأنه عفريت مستكبر[١].

جرت تلك الحوارات مع من يزعمون أنهم علماء ومؤمنو الديانات (اليهودية والنصرانية والصابئية والزرادشتية) وسواها ، وهؤلاء كما يتبين من حواراتهم الطويلة أظهروا عكس ما يبطنون ، فهم في أصل الرواية يسألون طمعا في الإجابة ممن هو في عرف المسلمين وريث علوم السماء والنبوة علي بن موسى الرضا (عليه السلام).بيد أن الحقيقة خلاف الظاهر، فلقد دعوا دعوة ضد ودسيسة ؛ استجابة للمأمون العباسي فإذا هم –كما تذكر الروايات– يقعون ساجدين ، بعد أن تلقفت حية المعرفة حبال غيهم وعصي تهافتهم.

لقد انطلق الإمام من نقطة مركزية في الفكر الحواري الإسلامي فقد قال تعالى ((آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل أمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله)) [٢]، وقال عز من قال ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي))[٣].

إن مبدأ التعددية العقدية يصدر عن تعددية في الإدراك والمستويات الشعورية ، ومن ثم اختيار القيم العقدية التي تتوافق مع الفكر، فالإيمان مرتبط أصلا بالعقل وما يركن إليه أدبيا ، وهما غير متنافيين وليسا بضدين لأن ((الإيمان والعقل السليم على وفاق أبدا ، فالأول تسليم بحكم الثاني أي أن الإيمان هو

اليقين بأحكام العقل الأدبية ، فالعقل يحكم بأن هذا حق ، والإيمان تصديق ذلك الحكم ، والعقل يقطع بأن هذه الطريق الأدبية طريق الأمن ، والإيمان هو التسليم بذلك الحكم ، والحامل على السير في تلك الطريق باطمئنان . فكل إيمان حق لا بد من أن يسبقه حكم العقل بصحة ما يؤمن به ، وإلا فذلك الإيمان تسليم بلا برهان))[٤] .

على أن العقل ليس بخالص إنما هو نتاج الحرية ، والحرية مُتحكم بها ، تصوغها قوى مجتمعية وتاريخية مختلفة . فالحرية حريتان : نفسانية ميتافيزيقية وأخرى سياسية اجتماعية ، وينتج عن اختلاف الاهتمام والنظرة اختلاف في المفاهيم . فبعضهم يحصر الحرية في أطر المؤسسات مثل الدولة والمجتمع ، فإذا أردنا أن نعرف معنى الحرية في مجتمع ما علينا أن نحلل فقه ذلك المجتمع [٥] ، من اجل هذا قال بعضهم ((إن للتقوى مردودا اجتماعيا بالنسبة للفرد ، يفوز الرجل التقي بعطف ورضا العشيرة ، فيكسب مزيداً من الجاه ويتسع مجال تأثيره في المجتمع وهذا يعني توسيع مجال التصرف .))[٦].

لم يكن هذا التشابك المعرفي بين ما هو ذاتي وموضوعي غائبا عن مبدأ التوحيد في الفكر الإسلامي ، فمبدأ التبعية وقضية الوراثة المعرفية نقطة مركزية جاهد الرسول لمحو آثارها وتحرير العقل من سياقاتها ، ومن جاء بعده من أهل بيته كانوا على دراية بمقدار التشابك الدقيق الذي أرخى سدوله على الذهنية الإنسانية فلم يستطع المرء منها فكاكا ، وعليه كان مبدأ الإباحة في اعتناق الأديان الأخرى ، على نية استحالة الحرية المثالية ، التي تسوغ للمرء قناعاته الكونية الكبرى مثل التوحيد والنبوة والمعاد وسواها ، مما يقع في صلب العقيدة .

أصر الإمام الرضا (عليه السلام) على الخوض في لجة الصراع الفكري الناشط وقت ذاك ، إذ لامناص منه _إن على سبيل القهر السياسي أو على سبيل الضرورة الفكرية _ فالحاجة إلى تغيير عقيدة الصراع الحضاري بين الدين الإسلامي والديانات الأخرى ضرورة ملحة ، فقد كانت تلك الديانات تذب عن حياضها بالجور حينا وبالعنت أحيانا أخرى ، بإزاء عقيدة آخذة بالتفشي والقوة هي دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

والذي يمحص في الأجواء التي نبت فيها الحوار يعلم يقينا أن المستهدف هو الفكر الإسلامي برمته ، متمثلا بالإمام الرضا (عليه السلام) وريث العلوم النبوية ، إذ بطرحه خارج دائرة المعرفة الموسوعية يتحقق المراد من تسقيط للمعرفة الإسلامية بجملتها ، فالكل ضد واحد ، وهي المعادلة الرتيبة القديمة ذاتها في نبذ الفكر الآخر وعدم تقبل آرائه ؛ لأن نبوغ الآخر بطبيعة الحال يعني تقليص حجم الأنا وتهميشها.

فالناس دوما ((بحاجة إلى هوية فهم يريدون أن يعرفوا من هم والى أية جهة ينتمون ، والهوية تعني رسم الحدود : شخص ما موجود وشخص آخر لا وجود له ،... وفي الأزمات والشدة يتنامى الخوف وتغدو الحدود أكثر أهمية ، ويصبح البحث عن عدو حاجة أساسية وهذه الحاجة تتجه بعناد نحو الآخر))[٧] ؛ من أجل ذاك تبقى الأنا مصرة على الاحتفاظ بشكلها الأول غير الناضج ؛ لأنه الشكل الوحيد الذي يرسم الحدود بينها وبين سواها ويسمح لها بالتميز ، وأي تعديل على الشكل الأول يعني بداية جديدة مليئة بالمخاطر تزحزح الثبات الأول وتضيع الحدود .

لقد أمر المأمون العباسي ((الفضل بن سهل أن يجمع له أصحاب المقالات مثل الجاثليق (رئيس الأساقفة) ورأس الجالوت (عالم اليهود) ورؤساء الصابئين والهربذ الأكبر (عالم المجوس وقيل عظماء الهنود) وأصحاب زردهشت (زرادشت) ونسطاس الرومي (عالم بالطب) والمتكلمين (الفلاسفة وعلماء المذاهب الإسلامية) ليسمع كلامه وكلامهم ، فجمعهم الفضل بن سهل ثم أعلم المأمون باجتماعهم !))[٨]

وليس في هذا الأمر غرابة ؛ إذ شهد العصر العباسي اختلاط الأمم وشيوع النقل والتزاوج الثقافي ، وهو أمر فرضته طبيعة الدولة مترامية الأطراف ، التي تلم تحت وطأتها شعوبا شتى ، ناهيك برغبة المأمون العباسي في الإطاحة بأبرز أعلام الدولة الإسلامية علما ومعرفة ، وذلك بتآزر العناصر مارة الذكر وجعلها في جانب ، وجعله (عليه السلام) في جانب أخر ، وكيف يطيق الفرد مهما أوتي من قوة أن يتغلب على الجمع المتآزر ؟. وتلك الحيلة نفسها التي رتبت لموسى (عليه السلام) حين اجتمع السحرة له ، وهم أرباب العلم في وقتهم ممن لا يشق لهم غبار .

لقد اعتمد الإمام الرضا (عليه السلام) ها هنا على حجية العقل التي لا تخطيء في تبيان صحيح الأمور من فاسدها، فقد نقل ((عن الحسن بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون يوماً وعنده علي بن موسى الرضا (عليه السلام) وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة ، فسأله بعضهم فقال له : يا بن رسول الله بأي شيء تصح الإمامة لمدعيها ؟ قال بالنص والدليل ، قال له : فدلالة الإمام فيم هي ؟ ، قال في العلم ، واستجابة الدعوة))[٩].

إذن لم ينكر الإمام فائدة الحوار مع مريديه ، فبعض المسائل تحتاج إلى الدليل والعلم حتى يتبين أمرها جليا ، وهو بذلك إنما يسبر أغوار النفس الإنسانية ، فمشكلة الإنسان البحث عن الحقيقة ، وليس باستطاعته أن يحيا دون أن يتساءل عما خفي عليه من معان ، وليس باستطاعة العالم والفيلسوف أن يقتنعا من دون أن يتوغلا في أعماق الأشياء بحثا عن اليقين [١٠].

لقد كان الإمام عارفا بمن سوف يلتقي ، وكيف يجادلون ، وبماذا يحتجون ومتى يرضخون . كما كان على دراية بإصرارهم على النكران والمباهتة والمغالطة ، وهو أمر اشتهروا به ، حتى أن النوفلي

حذر الإمام من مكيدتهم ، فقال الإمام مبتسما ((أفتخاف أن يقطعوا عليَ حُجتي ؟! ...ثم قال : يا نوفلي أتحب أن تعلم متى يندم المأمون ؟ ...إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم ، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وعلى أهل الزبور بزبورهم ، وعلى الصابئين بعبرانيتهم ، وعلى أهل الهرابذة بفارسيتهم، وعلى أهل الروم برروميتهم ، وعلى أصحاب المقالات بمقالاتهم ، فإذا قطعت كل صنف وقطعت حجته ، وترك مقالته ورجع إلى قولي ، علم المأمون الموضع الذي هو سبيله ليس بمستحق له ! فعندها تكون الندامة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم))[١١] .

إن الحوار ها هنا بالحجة غير القابلة للطعن والتفنيد ((فالعلم يحصل بالعقل متى أثرت فيه صورة الأشياء فنبهته من غفلته إلى العمل ، فيتدبر تلك الصور ويبحث عن حقائقها ويستقصي أسبابها ؛ ليجمعها في نظام معين ويدرجها ضمن أقسام مخصوصة ، ومتى حصل ذلك للعقل كانت فاعليته غالبة على مفعوليته ، وذلك يشبه ما يحدث للنبات متى وقع النور عليه ، فانه ينبه فيه قوى جديدة فتهب إلى قضاء أعمال لا يستطيع غيرها عملها . هكذا العقل متى جعل يتدبر صور الأشياء التي ترتسم عليه تستيقظ فيه قوى جديدة))[١٢] .

يقول أريك فروم ((لنجاح أي حوار شرطان مسبقان : أولهما أن يفهم المرء أن للطرف الآخر ، أي المشارك في الحوار ، حقاً يساوي حقه جوهرياً. وهذا يعني أن يأخذ المرء رأيه بجدية ، بوصفه رأياً ممكناً يستطيع أن يناقشه. إن الشرط المسبق الأول للحوار هو القدرة على الإصغاء إلى الآخر. والإصغاء بهذا المدلول يعني أكثر من التقاط الإشارات الصوتية، كذلك أكثر من فهم ما يقوله الآخر؛ إنه يعني أن أدرك أن الآخر يود أن يقول لي شيئاً ، شيئاً مهماً بالنسبة إليّ ، شيئاً عليّ أن أفكر فيه وقد يرغمني ، إذا دعت الضرورة، على تغيير رأيي . أما الشرط المسبق الآخر فهو الثقة بالآخر، وتعني أن يكون المرء مستعداً للتصريح برأيه ولا يخشى الأذى . فإذا لم تثق بما فيه الكفاية ، فلا أحد سيثق بك . ولا شيء كالحوار يخلق أساساً للثقة يترسّخ على نحو متقدم))[١٣].

إذن كان سبيل الإمام إليهم عقله أولا وعقولهم ثانيا ، ولو كان الإمام في حجاجه بإزاء نفر من الجهول لما تكلف مؤونة الحديث ، بيد أنه على دراية بأن الحجة البالغة إنما تدمغ كل ذي حجر ، وتلك حسنة تحسب لخصومه . وهذا ما تبين من نتيجة المناظرات التي دارت معهم .

لقد كان يعتقد أنهم من أصحاب البدع والكلام ممن هم خلاف العلماء ((وذلك أن العالم لا ينكر غير المنكر، وأصحاب المقالات والمتكلمون وأهل الشرك أصحاب إنكار ومباهتة ، إن احتججت عليهم بأن الله واحد قالوا صحح وحدانيته ! وإن قلت إن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) قالوا أثبت رسالته! ثم يباهتونه وهو يبطل عليهم بحجته ، ويغالطونه حتى يترك قوله))[١٤].

بيد أن حجاج العلم غير ذلك ، فقد أثبتت الروايات الواردة من مجلس المأمون أنَ هؤلاء ما لبثوا أن رضخوا واستجابوا ولبوا داعي الله بعد إذ رأوا الحجة البالغة ، ((وما لبث رئيس الأساقفة أن هوى أرضاً ، وتحول حاخام اليهود رأس الجالوت إلى مسكين منكسر ، وآمن الهزبر الأكبر ، وتمرغ نسطاس الرومي بالتراب ! وواصل الإمام عليه السلام عمله يحصد بمنجل علومه الربانية أباطيل علماء الأديان والمذاهب واحداً بعد الآخر، وهم يتهاوون صرعى في قاعة المجلس! ولم يبق إلا بهلوان العلمانيين الملحدين عمران الصابي الذي ادخره المأمون ليكون آخر نبل في كنانته ، ونزل عمران الصابي إلى الميدان فإذا هو بحرٌ في علوم عصره ، متضلعٌ في كل فروع الفلسفة التي كانت في ذلك العصر ، لم يغلبه أحد في مناظرة في كل عمره ! وتكلم بما يملك من تعمق وتفنن في مبدأ الوجود وفي أفعال الله تعالى من المبدأ إلى المنتهى، وطرح إشكالاته وأسئلته ، وأخذ الإمام (عليه السلام) يفندها ويجيبه عليها، حتى وصل عمران إلى سؤال مفصلي ، وما أن أجابه الإمام عليه السلام بعلمه الرباني حتى خرَّ عمران أرضاً وهو يعلن أمام أربعة آلاف حاضر : أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدا رسول الله !))[١٥].

إن الحوار فعل تواصلي ، يستبطن منظومة معرفية كاملة ودقيقة ، وكل مرسل في تلك المنظومة يبث ما يضمن له ديمومة التواصل مع الآخر ، فالمتحاورون لا يعبرون بالضرورة عن حاجات إنسانية ملحة بقدر ما ينخرطون في سلوك ثقافي عام لا يشكلون منه إلا جزءاً بسيطا ؛ من أجل ذاك تنبه العلماء المسلمون إلى حقيقة الكفر بوصفها عقيدة انتماء أكثر مما هي تفكير ، فقد أجمعوا على ((أن حكم الكفر إنما يطلق على المقولة وليس على القائل لهذه المقولة ، إذ ربما يكون لديه تأويل حتى إن كان فاسدا . فهذا التأويل حتى الفاسد منه يخرج قائل الكفر– فضلا عن ناقله – من عداد الكفار لان التأويل الفاسد شبهة والحدود تدور بالشبهات))[١٦].

إنَ هذه المسالة المفصلية في الفكر والعقيدة بثت ليونة في الحوار والفكر الإسلامي ، فليس هو من التعنت في شيء ، فالإسلام ينفرد بذلك من سائر الديانات الأخرى ((بالاعتراف بكل الشرائع والملل وجميع النبوات والرسالات وسائر الكتب والصحف والألواح ، التي مثلت وحي السماء إلى جميع الأنبياء والمرسلين ، منذ فجر الرسالات السماوية والى آخر وخاتم هذه الرسالات ، وفوق هذا الاعتراف ، هناك القداسة والتقديس والعصمة والإجلال لكل الرسل والرسالات))[١٧].

لقد أيدت أفعال الإمام الرضا (عليه السلام)هذا الاعتراف ، وقد سمحت وسائله في الخطاب أن يبلغ الحديث محله . وقد جرت الأمور على نسق واحد كأن يسأل أحدهم الإمام أمراً ما فيجيب الإمام ولا يحدث العكس . بيد أن الإمام وحالما ينطلق السؤال يبدأ بإدارة الحوار بالطريقة التي يريد ، فيجيب من خلال أسئلة يلقيها على السائل الأول فإذا أجاب مؤيدا سأل الإمام سؤالا آخر وهكذا ، وفي كل مرة يؤيد

الخصم الإمام تقل المسافة العقدية بينهما ، حتى يضطر الخصم إلى الخضوع في النهاية ، وقد تيقن مما لدى الرضا (عليه السلام) من العلم والمعرفة إذ ((لم يقم أحد منهم إلا وألزمه حجته كأنه ألقم حجرا))[١٨].

لقد سأل أهل الأديان والمذاهب الرضا (عليه السلام) أولا ، وفي ذلك وجهان : أولهما إن الأمر عائد للمأمون فهو الذي يشير على من يبدأ ومن يتكلم ، والآخر : إن الرضا (عليه السلام)كان يبحث عن أقوى علومهم التي منها يبدؤون ويحسبون أنهم بها عارفون ولن يجاريهم بها متفرس ولا بليغ ، فإذا كان لهم ذلك علم السامع أن الرضا (عليه السلام) لن يبتدئ من حيث يريد ، ولم يستعد للإجابة مسبقا ، فإذا تمكن من الرد والحجاج ففي ذلك مفازة دامغة .

ثم إن الإمام أصر في مواضع أهل الديانات الأخرى أن يجادلهم بأخبار دياناتهم، فهم بها موقنون وعنها لا يصَدَعون ، وما جاء فيها حجة بالغة عليهم . وهي من جهة أخرى إشارة بينة على عظم الإحترام والتقديس الذي يحفظه أهل البيت للعلوم الدينية الأخرى ، فقد نقل عنه (عليه السلام) أنه لما حاجج الجالوت رأس اليهود والجاثليق رأس النصارى كان يأتي بآيات من التوراة والإنجيل فيسألهم عن صحتها فيؤيدون ورودها عندهم . فقد التفت في حديثه مع رأس الجالوت فقال((: يا يهودي أقبل عليَّ أسألك بالعشر الآيات التي أنزلت على موسى بن عمران عليه السلام ، هل تجد في التوراة مكتوباً بنبأ محمد (صلى الله عليه وآله) وأمته : إذا جاءت الأمة الأخيرة أتباع راكب البعير يسبحون الرب جداً جداً تسبيحاً جديداً في الكنائس الجدد ، فليفرغ بنو إسرائيل إليهم وإلى ملكهم ، لتطمئن قلوبهم ، فإن بأيديهم سيوفاً ينتقمون بها من الأمم الكافرة في أقطار الأرض ! أهكذا هو في التوراة مكتوب ؟ قال رأس الجالوت: نعم إنا لنجده كذلك.ثم قال للجاثليق: يا نصراني كيف علمك بكتاب شعيا عليه السلام ؟ قال: أعرفه حرفاً حرفاً . قال لهما: أتعرفان هذا من كلامه: يا قوم إني رأيت صورة راكب الحمار لابساً جلابيب النور، ورأيت راكب البعير ضوؤه مثل ضوء القمر ! فقالا: قد قال ذلك شعيا عليه السلام .قال الرضا (عليه السلام): يا نصراني هل تعرف في الإنجيل قول عيسى عليه السلام : إني ذاهب إلى ربكم وربي والبارقليطا جاءٍ هو الذي يشهد لي بالحق كما شهدت ، وهو الذي يفسر لكم كل شيء ، وهو الذي يبدأ فضائح الأمم وهو الذي يكسر عمود الكفر ! فقال الجاثليق: ما ذكرت شيئاً من الإنجيل إلا ونحن مقرون به.فقال: أتجد هذا في الإنجيل ثابتاً يا جاثليق ؟ قال: نعم.قال الرضا (عليه السلام): يا جاثليق ألا تخبرني عن الإنجيل الأول ، حين افتقدتموه عند من وجدتموه ؟ ومن وضع لكم هذا الإنجيل؟ فقال له: ما افتقدنا الإنجيل إلا يوماً واحداً حتى وجدناه غضاً طرياً فأخرجه إلينا يوحنا ومتى.فقال له الرضا (عليه السلام): ما أقل معرفتك بسنن الإنجيل وعلمائه ؟! فإن كان هذا كما تزعم ، فلم اختلفتم في الإنجيل وإنما

وقع الاختلاف في هذا الإنجيل الذي في أياديكم اليوم ، فلو كان على العهد الأول لم تختلفوا فيه ، ولكني مفيدك علم ذلك: اعلم أنه لما افتقد الإنجيل الأول اجتمعت النصارى إلى علمائهم فقالوا لهم: قتل عيسى بن مريم عليه السلام وافتقدنا الإنجيل وأنتم العلماء فما عندكم؟ فقال لهم ألوقا ومرقابوس: إن الإنجيل في صدورنا ونحن نخرجه إليكم سفراً سفراً في كل أحد ، فلا تحزنوا عليه ولا تخلوا الكنائس، فإنا سنتلوه عليكم في كل أحد سفراً سفراً ، حتى نجمعه كله. فقعد ألوقا ومرقابوس ويوحنا ومتى، فوضعوا لكم هذا الإنجيل بعد ما افتقدتم الإنجيل الأول ، وإنما كان هؤلاء الأربعة تلاميذ تلاميذ الأولين! أعلمت ذلك ؟ فقال الجاثليق: أما هذا فلم أعلمه وقد علمته الآن ، وبان لي من فضل علمك بالإنجيل وسمعت أشياء مما علمته شهد قلبي أنها حق فاستزدت كثيراً من الفهم.))[١٩].

وأزعم أن في ذلك من عظيم الإحاطة ما لا يرده عاقل ، لاسيما وأن الرضا (عليه السلام) لم يكن ممن يحيرون جوابا أو يقصرون ، فلقد روي عنه في ما جاء من خبر المجلس أنه لا ينتهي من مسالة حتى يستفرغ منها من دون أن يسهب ، فلكل كلمة في حديثه معنى بالغ الضرورة والقيمة . وله في ذلك غاية الإقناع دون المنافسة، فهدفه أن يعلم من كان منكرا سعة العلوم الربانية وتهافت العلوم الإنسانية وأن الدين الحق هو الإسلام وما هو إلا منذر ولكل قوم هاد .

وقد ألف بعض أعلام الشيعة شروحا لبعض أحاديث الإمام الرضا (عليه السلام) هناك ، وخص منها حديثه مع عمران الصابي وهو علم في علوم عصره وسليمان المروزي لأنه (عليه السلام) ساق فيها أمورا ليس للمرء إلى إدراكها على ما جاءت عليه سبيل ، ومن ذلك ما ورد من قول الصابي ((قال عمران: يا سيدي ألا تخبرني عن الإبداع أخلق هو أم غير خلق؟ قال الرضا (عليه السلام): بل خلق ساكن لا يدرك بالسكون ، وإنما صار خلقاً لأنه شيء محدث والله تعالى الذي أحدثه فصار خلقاً له ، وإنما هو الله عز وجل وخلقه لا ثالث بينهما ولا ثالث غيرهما ، فما خلق الله عز وجل لم يعد أن يكون خلقه ، ويكون الخلق ساكناً ومتحركاً ومختلفاً ومؤتلفاً ومعلوماً ومتشابهاً ، وكل ما وقع عليه حد فهو خلق الله عز وجل . واعلم أن كل ما أوجدتك الحواس فهو معنى مدرك للحواس ، وكل حاسة تدل على ما جعل الله عز وجل لها في إدراكها ، والفهم من القلب بجميع ذلك كله . واعلم أن الواحد الذي هو قائم بغير تقدير ولا تحديد خلق خلقاً مقدراً بتحديد وتقدير وكان الذي خلق خلقين اثنين التقدير والمقدر ، وليس في كل واحد منهما لون ولا وزن ولا ذوق ، فجعل أحدهما يدرك بالآخر وجعلهما مدركين بنفسهما ، ولم يخلق شيئاً فرداً قائماً بنفسه دون غيره ، للذي أراد من الدلالة على نفسه ، وإثبات وجوده ، فالله تبارك وتعالى فرد واحد لا ثاني معه يقيمه ، ولا يعضده ، ولا يكنه ، والخلق يمسك بعضه بعضاً بإذن الله تعالى ومشيئته . وإنما اختلف الناس في هذا الباب حتى تاهوا وتحيروا وطلبوا الخلاص من الظلمة بالظلمة ، في وصفهم الله تعالى بصفة أنفسهم فازدادوا من الحق بعداً ، ولو وصفوا الله عز وجل بصفاته ووصفوا

المخلوقين بصفاتهم لقالوا بالفهم واليقين ، ولما اختلفوا فلما طلبوا من ذلك ما تحيروا فيه ارتكبوا ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.))[٢٠].

ولم يبخس الرضا (عليه السلام)الديانات غير السماوية حقها ، فقد روي عنه أنه حين حاور الهربذ الأكبر إنما احتج عليه بالعقل دون النص ، إذ لا نص مشترك يلجأ إليه . تقول الرواية ((ثم دعا بالهربذ الأكبر، فقال له الرضا (عليه السلام): أخبرني عن زردهشت الذي تزعم أنه نبي ما حجتك على نبوته ؟ قال: إنه أتى بما لم يأتنا أحد قبله ، ولم نشهده ولكن الأخبار من أسلافنا وردت علينا بأنه أحل لنا ما لم يحله غيره فاتبعناه . قال (عليه السلام) : أفليس إنما أتتكم الأخبار فاتبعتموه ؟ قال: بلى. قال: فكذلك سائر الأمم السالفة أتتهم الأخبار بما أتى به النبيون ، وأتى به موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام فما عذركم في ترك الإقرار لهم إذ كنتم إنما أقررتم بزردهشت من قبل الأخبار المتواترة بأنه جاء بما لم يجئ به غيره ؟ فانقطع الهربذ مكانه.))[٢١].

وللرضا (عليه السلام) في حواره أمور أخرى جاءت ضمن سياق سلوك أخلاقي إنساني عام ، إذ تفقد الأنا في بعض علاقاتها أو مواجهاتها مع الآخر بعض خصالها ؛ استجابة للآخر _بقصد أو دون قصد_ ضمن سياقات سلوكية عامة غير واضحة الملامح . وتلجأ أحيانا لبعض الحيل النفسية في حالات الدفاع ؛ من أجل الحفاظ على كينونتها أمام الآخر الموازي أو الضعيف في أحيان معينة . وهي عملية تواصلية في المقام الأول ، الهدف منها استمرار الأنا في وجودها ، الذي يتبدى من خلال الآخر ، فالآخر هنا هو ضرورة وقلق في الآن نفسه .

بيد أن الأنا الرضوية ورغم وحدتها الاجتماعية _في مقام النزاع الفكري والعقدي_لم تنفصل عن مرجعياتها ولم تتنازل عن جزئياتها ، إنما استمرت في تعيين انفصالها وتفردها ، ومن ثم استقطابها الآخر بتصحيحها لأنساقه الفكرية ، حتى غدت سلوكياتها ضمن النزاع تعظيما لوجودها وتأكيدا على اختلافها وفرادتها وحقيقتها الكونية المعبرة عن الذات الإنسانية بكل أبعادها ، فهي ذات ممتدة لا تترهل في حدود اختلاطها إنما تتشظى لكي تلج في الذوات الأخرى وتسبر أغوارها وتتحد معها ، إنها الذات العاقلة التي تسعى الذوات الأخرى إلى كونها في حالة المثالية غير المتحققة .

ففي الأخبار التي وردت عنه كان لا يتنازل عن صلاته ووقتها ((التفت إلى المأمون فقال: الصلاة قد حضرت . فقال عمران: يا سيدي لا تقطع عليَّ مسألتي فقد رق قلبي . قال الرضا (عليه السلام): نصلي ونعود، فنهض ونهض المأمون فصلى الرضا (عليه السلام) داخلاً، وصلى الناس خارجاً خلف محمد بن جعفر، ثم خرجا فعاد الرضا (عليه السلام) إلى مجلسه ودعا بعمران فقال : سل يا عمران .))[٢٢].

كما إنه لم يقطع حجة خصمه بالاستخفاف حين يعي جوابا ، فقد ورد عنه حين ألزم أبا مسلم الخراساني الحجة وضحك المأمون ومن حوله وضحك هو قال : ((ارفقوا بمتكلم خراسان))[٢٣]. وفي موضع آخر من مناظرته معه ((قال المأمون : ويلك يا سليمان ! كم هذا الغلط والترداد اقطع وخذ في غيره ، إذ لست تقوى على غير هذا الرد . قال الرضا (عليه السلام): دعه يا أمير المؤمنين لا تقطع عليه مسألته فيجعلها حجة ، تكلم يا سليمان.))[٢٤].

من أجل هذا كان الآخر الديني بإزائها محترما ومقدرا ومقدسا . فقد ورد في الخبر أن أهل العلم من الديانات الأخرى كانوا يخاطبون الإمام الرضا(عليه السلام)بـ (سيدي ، وجعلت فداك) ، وتلك الملفوظات تبث رسالة قيمية ، تتنازل فيها الأنا للآخر عن مكان التقدمة ، فيكون الآخر بالنسبة لها سيدا وهي المسود . وهذا نوع من إرساليات التواصل ، التي يستبطن فيها الملفوظ الاقتباس والأخذ والاعتماد ، فالآخر هو المقدم الذي يؤخذ عنه ، والأنا تعتمد وتستعير وتأخذ ، وتلك مرتبة في التواصل الإنساني لا تتحقق إلا في حالات الخضوع القهري أو العقلي ، وليست هي في هذا المقام من الباب الأول ؛ إذ لا سلطة قهرية للإمام الرضا (عليه السلام)على محاوريه إنما هي سلطة العلم ، وفي اعتراف المتحاورين بذلك تعزيز لأناهم المقرة بالمعرفة والخاضعة للعلم .

وأجمالا يمكن أن نستنتج مما ورد أعلاه بعض أمور هي :

١. إن تلك المناظرات كانت حيلة دنيوية من المأمون للإطاحة بالرضا (عليه السلام).
٢. إن المناظرات كانت في سياق معارف وسؤالات علمية وفلسفية تمس العقيدة .
٣. إن المتحاورين لم يمتلكوا مقدار علم الإمام ولا عشر أعشاره ، الأمر الذي أطاح بهم وحاروا معه جوابا .
٤. عبرت تلك المناظرات عن الرفعة العلمية والإنسانية التي يحتكم عليها الدين الحق ومعتنقيه من أهل البيت .
٥. إن الذات في حقل رهانها مع الآخر تتفوق إنسانيا إذا ما استطاعت أن تثبت وجود الآخر دون إقصاء أو تهميش ، والآخر بإزائها لن يكون إلا تابعا ومقلدا وبذلك تعين انفصالها وهذا ما حدث هناك .

الهوامش:

(١). ينظر : الكافي ، الكليني :١\٥٢٧.
(٢). البقرة :٢٨٥ .
(٣). البقرة :٢٥٦.
(٤). حرية الاعتقاد الديني ، إبراهيم الحوراني :٨٤.
(٥). ينظر: مفهوم الحرية :١٧
(٦). نفسه:٢١
(٧). تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتنغتون ، هارالد مولر ، تر: إبراهيم أبو هشهش: ٢٣.
(٨). عيون أخبار الإمام الرضا ، الشيخ الصدوق :٢\١٣٩.

(٩). عيون أخبار الإمام الرضا :١\٢١٦.
(١٠). ينظر: مشكلة الانسان ، زكريا ابراهيم :٥٤.
(١١). عيون أخبار الإمام الرضا:١\ ١٤٠.
(١٢). حرية الاعتقاد الديني :٢٨.
(١٣). فن الإصغاء ، أريك فروم ، تر: محمود منقذ الهاشمي : ١٤-١٥. وتراجع : المقدمة العربية لكتاب "التحديات الكبرى: الحياة والدين والدولة"، تأليف آرنولد توينبي ودايساكو إكيدا، ترجمة محمود منقذ الهاشمي :٤.
(١٤). عيون أخبار الإمام الرضا :١\١٤٠.
(١٥). مناظرات الإمام الرضا مع أهل الأديان ، موسوعة أنصار العقيدة (انترنت).
(١٦). الإسلام والآخر ، من يعترف بمن ؟ ومن ينكر من ؟ : ٩.
(١٧). نفسه : ٢٠.
(١٨). مناظرات الإمام الرضا مع أهل الأديان ، موسوعة أنصار العقيدة (انترنت).
(١٩). عيون أخبار الرضا :١\١٤٥-١٤٦.
(٢٠). نفسه :١\١٥٦.
(٢١). عيون أخبار الرضا :١\١٥٠.
(٢٢). نفسه :١\١٥٣.
(٢٣). نفسه:١\١٦٢.
(٢٤). نفسه:١\١٦٦.

مصادر البحث

القرآن الكريم

١. الإسلام والآخر ، من يعترف بمن ؟ ومن ينكر من ؟ ، د. محمد عمارة ، مكتبة الشروق الدولية ، (د. ت . ط) .
٢. التحديات الكبرى الحياة والدين والدولة ، آرنولد ثوينبي وأبسكو أكيدا ، تر: محمود منقذ الهاشمي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ .
٣. تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتنغتون ، هارالد موللر ، تر: إبراهيم أبو هشهش ، دار الكتاب الجديد ، طرابلس ، ط١، ٢٠١١.
٤. حرية الاعتقاد الديني ، مساجلات الإيمان والإلحاد منذ عصر النهضة إلى اليوم ، تصنيف وتقديم : محمد كامل الخطيب ، دار بترا للنشر والتوزيع ، دمشق ،ط١ ، ٢٠٠٥.
٥. فن الإصغاء ، أريك فروم ، تر: محمود منقذ الهاشمي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،٢٠٠٤.
٦. عيون أخبار الرضا ، الشيخ الأقدم والمحدث الأكبر أبي جعفر الصدوق (ت٣٨١) ، صححه وقدم له وعلق عليه : العلامة الشيخ حسين الأعلمي ، منشورات ذوي القربى ، قم إيران ، ط١، ١٤٢٧.
٧. الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ) ، منشورات الفجر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٧.

٨. مشكلة الإنسان ، زكريا إبراهيم ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، (د . ت).
٩. مفهوم الحرية ، عبد الله العروي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٩٣.